استثمار الزمن فنيًا لإنتاج التاريخ في رواية "مدارات الشرق" لنبيل سليمان.

باسل حسن الحسن

قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة إدلب

طالب دراسات عليا(ماجستير)

الملخص

يوضح هذا البحث الطرائق التي استخدمها الروائي نبيل سليمان في التعامل مع الزمن في رباعيته "مدارات الشرق".

ولأنَّ الروائي يحفر في فترة تاريخية طويلة من التاريخ السوري في هذه الرواية تمتد من عام **1918م** إلى عام **1954م**، فإنني قمت بتتبع التقانات الزمنية التي استثمرها الروائي في عملية الخلق الفني للتاريخ في هذه الرواية، ومنها الاسترجاع والاستباق. وقد استرجع الروائي الزمن الماضي لبعض الشخصيات أو لبعض الأحداث لتحقيق أهداف متعددة، كتوضيح بعض الأحداث أو الكشف عن ماضي بعض القبائل. ولجأ للاستباق لاستشراف بعض الأحداث، وجذب انتباه القارئ، وتشويقه لمتابعة القراءة.

وعمل على وتر الإيقاع الزمني من خلال تسريع السرد بالتلخيص: (تلخيص حدث طويل)، والحذف: (حذف أحداث غير مهمة من وجهة نظره)، أو تبطيئه بالمشهد: (مقطع حواري للكشف عن وجهات نظر بعض الشخصيات)، والوقفة الوصفية: (وصف مكان أو معركة). ثم استخدم التحديدات الزمنية للإيحاء بتاريخية الرواية.

ومن خلال التقانات الزمنية التي لجأ إليها الروائي تحقق الزمن الموضوعي للرواية: (الحاضر والماضي والمستقبل)، وتحقق الهدف العام للرواية.

الكلمات المفتاحية: الزمن والرواية، الاسترجاع، الاستباق، الإيقاع الزمني، التحديد الزمني، مدارات الشرق.

المقدمة:

الزمن هو عنصر أساسي من عناصر بنية الرواية، لا يمكن لأي روائي إلا أن يتعامل معه بطريقة ما أو بطرائق شتى، سواء أكان يكتب في الرواية التاريخية أم في غيرها. هذا بالنسبة للأديب. أما بالنسبة لنا فلا يمكننا أيضًا أن نخرج من صراعنا المتواصل مع الزمن في محاولاتنا المتواصلة لإبطائه أو تسريعه أو إيقافه، بحسب الحالات النفسية أو الفيزيولوجية التي تقتضي ذلك, سواء في العصور السابقة أم في عصرنا الحالي. وربما كانت السرعة الهائلة التي تسود عصرنا, والتي نشعر بها جيدًا، من الأسباب الرئيسة لارتماء الروائيين في أحضان الماضي، رغبةً منهم في إبطاء حركة الزمن.

ثم إنَّ الزمان– وإن كان عنصرًا أساسيًا من عناصر بنية الرواية– مرتبط ببقية عناصر بنية الرواية الأخرى, كالمكان والحدث. فالزمن يضبط الفعل الروائي, وبه يتمّ، وعلى أوتاره المتأرجحة يصنع الحدث وقائعه, وهو شيء مجرد لا يُجسّد في الرواية إلا من خلال سرد الحوادث, وهو العنصر البنّاء الذي يؤثّر في عناصر الرواية، وينعكس من خلالها وعليها. وذلك لارتباط الزمن بعملية السرد الروائي الذي هو سرد في الماضي استنادًا للتخييل في إطار الزمن. وعلى هذا يكون للروائي حرية التصرف والتعامل مع الزمن, ولكن دون الخلل بالزمن الموضوعي للحدث.

وبشكلٍ عام لا يمكن لعنصر الزمن الاستقلالية بنفسه عن بقية عناصر الرواية الأخرى, فهو مرتبط بها على الرغم من وجوهه المختلفة, ويتحقق من خلال آلية السرد، ومن خلال استخدام الروائي لتقانات متعددة. وهو يشكّل مع العناصر الروائية الأخرى بنية روائية متكاملة يصعب الفصل فيما بينها.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في رصد علاقة الزمن بالوجود الإنساني بشكل عام، فهو من العناصر الأساسية في بنية الرواية بشكل خاص. والزمن في الرواية له مفهوم محدد، ولكل روائي زمنه الذي ينجزه في روايته، ومن خلاله يعكس رؤيته الفنية للزمن.

ولأنَّ الروائي نبيل سليمان يتعامل في رباعية "مدارات الشرق" مع التاريخ وأحداثه الجمّة في مرحلة مهمة من مراحل التاريخ السوري، فمن الأهمية أن يُبحث عن الطرائق التي تناول بها الروائي الزمن فنيًا في هذه الرواية، لإنجاز زمنها.

أهداف البحث:

1- معرفة التقانات التي استخدمها الروائي لإنجاز زمن مدارات الشرق.
2- معرفة الأهداف التي حققها الروائي من استخدامه لتقانات الزمن، لخدمة الهدف العام للرواية.
3- معرفة الطرائق التي وازى بها الروائي بين الزمن الروائي والزمن التاريخي للأحداث التاريخية المستحضرة في الرواية.

طريقة البحث:

سيتم اعتماد المنهج الوصفي، من خلال دراسة الظواهر الفنية لاستخدامات الزمن، ووصفها بطريقة علمية، للوصول إلى تفسيرات منطقية لها. إضافة إلى الاطلاع على المصادر والمراجع اللازمة لدعم البحث بالأمثلة والشواهد والأدلة، كي تكون النتائج منطقية وواضحة.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة تضمنت علاقة الزمن بالرواية وكيفية إنتاجه روائيًا، وتوضيح أهمية البحث، والأهداف المرجوة منه. ومبحثين، والخاتمة والنتائج، والمصادر والمراجع.

المباحث والمناقشات:

1- الزمن في الرواية التاريخية:

الزمن في الرواية بشكل عام هو زمن تخييليّ, لكنّه في الرواية التاريخية ذو خصوصية معينة, لأنّ الروائي يتعامل مع أحداث تاريخية مرتبطة بزمن معين, وهذه الأحداث تفرض عليه تعاملًا زمنيًا خاضعًا لتراتبية هذه الأحداث, وإن كان لديه فرص متعددة لاستخدام التقانات الزمنية المطاطية في رصد هذه الأحداث, "وللرواية التاريخية البسيطة تنوعها الزمني الخاص بها, فقد تكتب وكأن الكاتب معاصر وهمي, وهو الكاتب الفرضي للمذكرات أو اليوميات, أو تكتب بمعرفة غير محددة, أي أنها لا تُرى من خلال النظرة المحدودة للمعاصر وإنما بالحس التاريخي الأوسع الذي لدى عصر لاحق على ضوء ما حدث منذ ذلك الحين"[(1)].

وعلى الرغم من تنوّع الزمن الخاص بالرواية التاريخية, نجد الروائي بها مقيدًا إلى حدٍ ما بشروط معينة, لأنَّ "الزمان في الرواية التاريخية على الأغلب زمان حقيقي, وهنا لا يحق للروائي أن يتلاعب بزمن الأحداث الحقيقية, وعنصرا الزمان والمكان في العمل الأدبي عنصران مهمان في العمل الأدبي بوجه عام, ولكن لهما خصوصية في الرواية التاريخية"[(2)], نظرًا للتقارب الأدبي بين الرواية التاريخية بشكلٍ خاص، والتاريخ بشكلٍ عام في تعاملهما مع الزمن التاريخي, "والرواية تماثل التاريخ في ذلك الاعتبار عندما تتوجه بدورها إلى أحداث الماضي, وهي تفتش فيها عن أنوية الفعل الزمني وعن سيرورات أخرى يمكن أن نعتبر الزمان هذه المرة محمولًا على ظهرها لأنها جزء فاعل ومؤثر في توجيه مساره"[(3)].

ولا وجود للتاريخ خارج إطار زمنه الخاص, والرواية التي تحفر بالتاريخ لا وجود لها إلا في إطار زمنها التاريخي الخاص بالأحداث الماضية التي تعود إليها الرواية, حيث "إن التاريخ يمتد في الزمن كما يمتد الزمن في التاريخ, والجدل بينهما يولّد إحساسًا دائمًا بضرورة اكتشاف الواحد في الآخر, فالتاريخ ينشد الإمساك بالزمن وتمكين المعرفة من النفاذ بطريقة محايثة إلى معطيات ذات طبيعة تعاقبية, كما أن الفهم الحسن لأثر التاريخ في

الزمن يسمح بمعرفة آفاق الزمن الإنساني, ويؤهل الإرادة البشرية لصناعة أقدارها ولو جزئيًا بما يشتمل عليه التاريخ من تجلياتها وطرق نمائها وتطورها"[4].

فالزمن في الرواية التاريخية هو زمن تاريخي خاضع لتعاقبية الأحداث التاريخية التي تعالجها الرواية, وله ارتدادات زمنية تخييلية مرتبطة بالأحداث الاجتماعية التي تتأثر فنيًا بطريقة الحفر التاريخي.

2- الزمن في مدارات الشرق وعلاقته بالسرد:

إنَّ المدة الزمنية التي استغرقتها رواية مدارات الشرق، هي مدة طويلة من حياة الشعب السوري، والأحداث التي سُردت في هذه الرواية من أهم الأحداث التاريخية التي مرَّ بها هذا الشعب في مرحلة تُعدُّ من أهم المراحل في التاريخ السوري الحديث، إذ بدأ السرد في هذه الرواية من رحيل الأتراك عن سورية عام **1918م**، إلى الفترة الممتدة إلى ما بعد الانقلابات العسكرية الثلاثة التي عالجتها الرواية تاريخيًا، أي إلى عام **1954م** تقريبًا. فالزمن التاريخي في هذه الرواية زمن طويلٌ إلى حدٍ ما، وشهد هذا الزمن الكثير من الأحداث التاريخية والاجتماعية المعقدة التي تمخض عنها الاستقلال السوري عن الفرنسيين، كما شهد تعاقب جيلين من الشخصيات الروائية التي دارت في فلك هذا الزمن. ونظرًا لتعقيد الأحداث التاريخية والاجتماعية وتشابكها بشكل فني، فإن الزمن الذي تلاعب به الروائي، إلى جانب الزمن التاريخي أظهر مهارته في التعامل معه، واستفاد من تقانات السرد الزمني للملاءمة بين الزمن الروائي والزمن التاريخي.

وقد حدّد الويقن مصطفى نوعين من الاستعمال الزمني لمدارات الشرق[5]:

1- زمن أفقي يمتد إلى الأمام، وهو الزمن المؤطر للنص، أي من زمن انكسار الجيش العثماني سنة **1918م**، إلى نهاية الخمسينيات أو بعدها.

2- زمن عمودي يمتد إلى الوراء، عكس الأوّل، ويخرق التسلسل المنطقي للأحداث في شكل استحضار للماضي القريب أو البعيد. وهو يأتي لإنارة جانب غامض من حياة شخصية جديدة في مسرح الأحداث.

واستنادًا إلى هذا التحديد يكون الزمن في مدارات الشرق هو زمن موضوعي: حاضر، ماضٍ، مستقبل.

فالزمن الحاضر مرتبط بالزمن السردي المتجلي في لحظة التلفظ، أمّا الزمن الماضي فظهر في رجوع الراوي إلى الماضي لإيضاح بعض الأحداث، أو تقديم لمحة عن ماضي شخصية ما، أو مجموعة من الشخصيات كقبيلة أو عشيرة أو عائلة، أو مجموعة قبائل أو عشائر أو عائلات، أو رجوعه إلى لحظات تاريخية بعيدة كرجوعه بالزمن إلى أقدم حادثة في تاريخ الإنسانية: (قتل قابيل هابيل)، أو إثباته لتاريخية مكان ما أو قدمه. والزمن المستقبلي ظهر في استشرافه لبعض الأحداث كموت شخصية ما، أو حدث تاريخي أو اجتماعي.

وقد أفاد الروائي من التقانات الزمنية لتحقيق الزمن الخاص بمدارات الشرق، ونظرًا لضيق المقام سأقدم بعض الأمثلة على تلك التقانات، للتعرف على الكيفية التي استخدم بها الروائي عناصر بنية الرواية في إنتاج التاريخ، ومنها الزمن وتقاناته.

2-1- التراتبية الزمنية بالاعتماد على تقانتي الاسترجاع والاستباق:

أ- الاسترجاع:

ويُعرّف الاسترجاع بأنه: "مخالفة لسير السرد تقوم على عودة الراوي إلى حدث سابق"[6].

وقد استخدم الروائي بعض الاسترجاعات لإيضاح بعض الأحداث، ومنها سبب سوق عزيز اللباد إلى العسكرية، فالروائي بعد عودة عزيز من الجيش الفيصلي إلى أهله، يقطع السرد، ويعود إلى الماضي ليبين السبب الذي أودى بعزيز اللباد إلى العسكرية، بعد

أن تنازل والد عزيز عن الأرض لبيت بشارة، ليخلصوا عزيزًا من العسكرية، يقول الروائي: "طويلًا ظلَّ ذلك يشغل قبية، حتى بعد أن استسلم أبو عزيز لقضاء الله وقدره، وأضاع الولد والأرض، وأيقن أنه منحوس ابن منحوس، أو مذنب أو وارث ذنب عظيم. فلو لم يكن كذلك، لما حصل الخطأ العجيب الذي يؤكده بيت بشارة، دون أن يعرف أحد كيف حصل، فلم يُشطب اسم عزيز اللباد من قائمة المطلوبين. طويلًا أيضًا عاش أبو عزيز وقبية كلها على الأمل الذي يؤكده بيت بشارة جميعًا، بتصحيح الخطأ، وعودة عزيز، غدًا أو بعد غد.

لم يفكر أبو عزيز خلال السنة الأولى بمفاتحة بيت بشارة في أمر الأرض التي تنازل لهم عنها. ومما زاده يقينًا، أنهم هم الذين أتوا بخبر فرار عزيز كل مرة، حتى نفضوا أيديهم، متذرعين بما جناه الولد الطائش على نفسه.

كان ينحي باللائمة في سره على ابنه الذي لا بد أن يكون قد ابتلي بالجنون، كي يحاول الفرار مرة بعد مرة، ويجعل بيت بشارة عاجزين عن إنقاذه. ولكن مادام هذا هو حكم الله، فالتنازل عن الأرض إذن يُعدُّ لاغيًا. كذلك قال أخيرًا وهو مطرق على غير عادته حين كان يخاطب بشارة الكبير أمام فلاحي قبية. لكن بشارة رد ملاطفًا:

– الحق معك أن تفكر هكذا، فمثلك لا يعرف كم كلفنا عزيز. من منكم يعرف كيف نرضي فلان وعلان حتى نخلص ابنه من العسكرية؟ خصوصًا إذا كان المطلوب مثل عزيز، من فرار إلى فرار، وكل فرار يكلفنا أكثر من الأول؟

كان أبو عزيز قد رفع رأسه وهو يؤشر به مؤمنًا على ما يسمع، وبشارة يتابع منقلًا عينيه بين الفلاحين والوادي:

– من منكم يعرف كم تكلف اليوم إعادة الأرض؟ لا أحد منا يقول لا. تريد الأرض؟ حقك محفوظ، ولكن من يدفع؟ من يدفع أيضًا ما تكلفناه بسبب عزيز؟ نحن نعرف أن الدنيا عسيرة, لكن أليس من حقنا نصف ما تكلفناه على الأقل؟ كرمى لكم نسامح بالنصف, والباقي من يحسب جيدًا هنا؟ هل تستحق الأرض نصف ما تكلفه اليوم إعادتها وربع ما صرفنا بسبب عزيز؟ احسبها يا أبو عزيز ورد لي الجواب..

هكذا نسيت الأرض, ثم نسي عزيز, ولم يبق سوى وعد بيت بشارة بالعون حين يطلب الابن الثاني إلى العسكرية"[7].

فقد أفصح الروائي من خلال هذا الاسترجاع الزمني الطويل عن أمور متعددة, منها: سبب ذهاب عزيز إلى العسكرية، وفراره منها كثيرًا، وسبب ضياع أرض والد عزيز, وكشف الاسترجاع عن ماضي عزيز وعائلته, وتاريخ (قبية) قرية عزيز المتمسك أهلها بالأراضي, والحيل التي كان يلجأ إليها بشارة الكبير للاستيلاء على أراضي فلاحي القرية. وهذا ما يفسّر نضوج البذور الأولى لروح التمرد الذي ظهرت مرارًا في الأحداث التي مرت بها شخصية عزيز، التي تأثّرت كثيرًا بالأحداث التاريخية.

وعمد الروائي من خلال استرجاع زمني قصير إلى تبيان أصل قبيلة الهنادي ومشاركتهم في بعض الأحداث التاريخية, من خلال ذاكرة عم ياسين الحلو: "جدك الله يرحمه كان يقول لي وأنا صغير: الهنادي غير بدونا وغير فلاليحنا. الهنادي بدو مصر, لا نابليون ولا محمد علي باشا نفسه كسر شوكتهم, ويوم غزا إبراهيم باشا السودان والحجاز والشام, اعتمد عليهم. بهم كان يطارد أعداءه, وإذا انسحب, بهم كان يمنع أعداءه أن يلحقوا به. كانوا دائمًا أول من يصل من حملته. كان واحدهم يأتي مع فرسه وبارودته, وإبراهيم باشا يدفع الأجر. ومن يوم جدك لليوم ما قطع الهنادي حبلهم مع مصر"[8].

وقام الروائي من خلال ذاكرة ياسين الحلو باسترجاع بعض الأحداث التاريخية والاجتماعية التي يلملم نثارها ياسين, ويربط الروائي بينها وبين الأرض السورية الواسعة، وما عليها من قبائل وعشائر، وما مرت به هذه الأرض من أحداث، فيقوم بتلخيص الأحداث التي عاصرها ياسين الحلو حتى لحظة تذكّره، وهو مستلقٍ في خيمته في عين آدم لدى ديار الأمير دشاش منتظرًا ولادة زوجته هند: "ما كان أمام ياسين كل ليلة تنقضي بانتظار الولادة الصعبة إلا أن يتمدد مستجديًا النوم, يداور النجوم التي تلوح عبر فرجة الخيمة الصغيرة, ثم تستبد به واحدة من بينها, عرف فيها من كانت تساهره في ليالي أخرى, بعيدًا جدًا, وهو ملقى على الرمل, بلا خيمة, حوله فياض العقدة وعزيز اللباد وإسماعيل معلا وراغب الناصح وحمادي الحسون وعساكر كثيرون وضباط كثيرون وجمال وخيول وبنادق

ومدافع وبغال وعبيد وأمير, إسلام ونصارى وعرب وإنكليز. ومثلما صار يعرف كل واحد من أصحابه, ولو كان يدير ظهره مغمورًا بعشرات, صار يعرف تلك النجمة– هذه النجمة من مرج النجوم الأزرق الصافي المشعشع بالذهب.

كانت النجمتان تتوحدان مرة, تتفردان مرة: واحدة تهديه والركب من أقصى الجنوب إلى الشام, نجمة توجعه لأنه لم يلتق بأي من صحبه بعد أن غادر القشلة سوى مرة, حين جاء عزيز اللباد إلى الزنبقلي, وشوى رستم آغا طيز العريس على الصاج, ومرة حين ومض حمادي الحسون في خان الكوبرلي, ونجمة تنسبه إلى الأصحاب الخمسة الذين تلازموا دهرًا, أو تنسبه إلى ذلك الركب, فثمة قبيلته وعشيرته وأسرته, إذ كانوا قبائل في قبيلة, عشائر في عشيرة, قرى ومدن وأسر وخيام في جيش مُيمم إلى الشمال. أما النجمة الأخرى فكانت تضيء مسالك أخرى، تغالب العتم الغامر في هذا المكان حين تختفي النجوم من السماء, قبل أن يطلع النهار, وياسين يخرج من أطراف الصحراء، كما خرج الذين سبقوه من قبله, يتدافع مع الناس كما في يوم الحشر نحو هذه الأرض, وكلما أوشك أن يصل هو أو سواه, يدمى فؤاده وتتضرج النجمة, فالفرسان يتساقطون, والخيام تقوض, والمراعي ينتزعها اللاحق من السابق, والسابق يفر أمام اللاحق, واللاحق يعير السابق بمجرفة ومحراث وكوخ وطامة, ويطوح بالأشياء في الفلاة, أما الرؤوس فتتناوشها أطراف السيوف والرماح, ولا يهدأ ذلك حتى يئز الرصاص, فإذا بمرج النجوم الأزرق الصافي يحمر ويتعكر, يضج بالغبار والمسامرات التي تملأ الخيام دومًا عن الصراع الجديد أو القديم, وياسين الحلو يصغي, يتشوف ويكاد أن يؤخذ مع هذه القبيلة أو ذلك الفارس, لولا أن أنين هند يوقظه"[9].

ففي هذا الاسترجاع الزمني الطويل نسبيًا، لخص الروائي بعض الأحداث الروائية السابقة في ذاكرة ياسين الحلو، التي تقارب بين الحاضر والماضي بالأفكار المبعثرة التائهة نفسها, كتيهان ياسين والشخصيات المقرّبة منه في الرواية.

وقد أكثر الروائي من استخدامه الاسترجاعات الزمنية في الرواية، لتوضيح بعض الأحداث وتفسيرها, والكشف عن الملامح النفسية والفيزيولوجية لكثير من شخصياته الروائية, كاسترجاعه لماضي كُلٍّ من الشخصيات الخمس التي كانت في الجيش الفيصلي المُيمم

شمالًا, إضافة إلى شخصية صديقهم حمادي الحسون. وانجلى بهذه الاسترجاعات تاريخ قرى وأماكن استيطان وتنقّل كُلٍّ من هذه الشخصيات.

وكان يلجأ إلى الاسترجاعات الزمنية للكشف عن ماضي بعض الشخصيات التي ظهرت من خلال ارتباطاتها وعلاقاتها مع تلك الشخصيات التي شاركت في الجيش المتجه إلى الشمال, كي يعطي توضيحات عن هذه الشخصيات التي كانت تظهر فجأة في الرواية, وتبريرات للتصرفات والتحركات اللاحقة في صدى الأحداث التاريخية التي كانت تلقي بظلالها على سيرورة الأحداث الروائية, كالاسترجاع الزمني لماضي ماجد بك الجويبري: "كان ماجد بك– أوسط أخوته– قد شارف الستين, ولا يزال عازبًا, كشقيقه وعمتيه وشقيقته. ومنذ التحق بالمدرسة الحربية في الأستانة, ما عادت حلب بالنسبة إليه سوى محطة.

من تلك المدرسة انطلق مجده, فحارب ضد الروس في الأناضول. ثم حارب ضد البلشفيك شمالي القفقاس, وهزمهم, كما حارب على الجبهة الرومانية, وفي الدردنيل, ومرعش, وحين انتهت الحرب, وهزم الأتراك, كان برتبة أمير آلاي.

قبل أن يغدو لسورية ملك وعرش وتاج, كان ماجد بك قد التحق بالجيش قائدًا للواء الرابع، ثم قائدًا للفرقة النظامية الأولى. لكن الفرنسيين أسرعوا, وأحالوه على التقاعد, ثم أبعدوه إلى عمان, فنظم للأمير الحجازي الشرطة الوليدة في الإمارة, وتعلق به, كما تعلق من قبل بشقيقه في بلاط الشام.

إثر سقوط العرش السوري، أقام في حلب حزينًا وصامتًا أسابيع. ثم نقض صمته وتفجر حزنه, وهو يتطاول على الفرنسيين, ويتحدى نصائح رشاد بك أو ردعه, حتى أبعد إلى عمان. ولما عاد بعد سنتين, كانت الثورات قد بدأت تندلع, فحاول أن يقود الثوار في حلب, وإذ أخفق حاول في السويداء. وإذ أخفق, عاد إلى حلب حزينًا وصامتًا, لكن الفرنسيين أسرعوا إلى إبعاده, وكرمى لرشاد بك خيروه, فاختار الملك الحجازي السوري المخلوع الذي كان قد صار ملكًا على بغداد, منذ سنوات"[(10)].

ومن خلال هذا الاسترجاع الزمني لماضي ماجد بك الجويبري, غطى الروائي بعض الأحداث التاريخية التي شهدتها هذه الشخصية, وأعطى تفسيرًا لمناداة ماجد بك الجويبري بعرش وملك في سورية, كما في بغداد. ويظهر ذلك أيضًا في قطع الروائي للسرد واسترجاعه لماضي تحسين شداد: "ضحك تحسين من الطفل, وتركه يشب على هواه, حتى يغدو قادرًا على أن يطحن حبة القمح بين إبهامه وسبابته, أو يلبط البغل فيرميه, أو يشرب الزيت والسمن الحديدي كما يشرب الماء, أو يجعل العاهرة الأولى التي ضاجعها تستغيث. وكما ضاق الشاب بجلده ضاق بالمدرسة وبموت أبيه وأمه, وظل يضيق حتى انفجرت به البزة العسكرية أو استانبول أو الحرب العالمية الأولى"[11].

وفي هذا الاسترجاع الزمني القصير يعطي الروائي لمحة سريعة عن ماضي تحسين شداد, وذكْرُ الروائي صفات تحسين شداد الجسمانية القوية، وخبرته العسكرية, يُبرر قيام تحسين شداد بانقلابه العسكري, كما أن الروائي اختار اسم تحسين لجميع قادة الانقلابات التي ذكرها في الرواية. وما يُلاحظ في الرواية كثرة الاسترجاعات الزمنية, وذلك لارتباط الرواية بالتاريخ, وإعادة إنتاجها له، كون التاريخ هو بالأساس استرجاع وتوثيق للماضي.

أ- الاستباق:

يُعرِّف لطيف زيتوني الاستباق في منظور السرد الروائي: "هو مخالفة لسير زمن السرد تقوم على تجاوز الحكاية وذكر حدث لم (يحن)[12] وقته بعد"[13]. ويُعرّفه إبراهيم فتحي بأنه: "الإشارة والإيحاء مسبقًا وقبل الوقوع. وفي الأدب يقدم المصطلح إيحاء يؤذن بما سيحدث"[14].

والروائي نبيل سليمان بحكم أنه تناول في مدارات الشرق أحداثًا تاريخية من الماضي القريب, ولم يجر تحويلات على الأحداث, وإنما أعاد صياغتها فنيًا, كان يلجأ إلى بعض الأساليب الزمنية, إذا كان جزء من الحدث غائبًا, وذلك لتغطية هذه الأجزاء الغائبة, كاستخدامه للاسترجاع الزمني أو الاستباق الزمني, متناوبًا بذلك على هذه الأساليب.

ويُعدُّ استخدامه الاستباق الزمني قليل بالنسبة لاستخدامه الاسترجاع الزمني, وذلك– كما أشرت سابقًا– لارتباط الرواية بالتاريخ, ولقيام الاسترجاع على الماضي. أما الاستباق فقط لجأ إليه الروائي للاستشراف والتنبؤ ببعض الأحداث التاريخية, كاستشراف عبد الودود السعد من خلال الحاضر احتلال الفرنسيين لسوريا: "كان عبد الودود يؤكد أن الاستقلال الذي يعد به القصر لن يكون غير انسحاب للإنكليز من الشباك ودخول الفرنسيين من الباب. كان هولو يثور لذلك, يود لو يخرج وحده في مظاهرة من ذلك البيت الطيني الصغير, من الليل الدامس للشيخ حسن, إذ يندر أن يلتقي بعبد الودود نهارًا"[15]. وبالفعل إذ تبين لاحقًا قد خرج عبد الودود وهولو في مظاهرة ضد الانتداب والوصاية الفرنسية، ودخل الفرنسيون سورية.

ومن الاستباقات التي قطع بها الروائي الزمن السردي الآني لاستشراف المستقبل, تنبؤ علاء البسمة بزواج شمسي النعنعة الذي طلّق منه سليم أفندي ابنته زمردة: "أما علاء فكان الفراغ يثقل عليه, وقد بدا له المكتب أو البيت أو الجامع أو الشارع مثل مسافر طال انتظاره, وليس له ما يؤويه إلا أن ينتظر. ولعله لذلك بدأ يلهو كل عشية مع سليم النعنعة, يدعو أمه إلى أن تسعى في زواج زمردة, مادامت سدت الدرب عليه وعلى الصبايا اللواتي ملأن البيت, ومادام شمسي النعنعة تزوج, ولعله أنجب"[16]. وبالفعل تزوج شمسي النعنعة من حُسن نيله, وأنجب منها ولدًا، أسماه سجيع بن نظام الدين عبد الرحمن النعنعة.

ومن الاستباقات التي تنبأت بموت إحدى الشخصيات في الرواية, تنبؤ الباشا شكيم بموته بعد أن هزأه تحسين شداد، وحرّم عليه ارتداء طربوشه. وقد أفصح الباشا بذلك لسليم أفندي، عندما عثر عليه سليم أفندي بعد اختفائه لفترة طويلة بعد الانقلاب الثالث، وهو يكتب مذكراته: "هتف سليم أفندي:

– روحي فداك. أنت بخير والحمد لله. أنت تكتب مذكراتك.

– هذا وحده علامة للموت. كل ما أرجو من الله يمهلني حتى أنهيها. وعلى كل حال ما بقي إلا سري مع تحسين.

قال الباشا وهو يميل نحو سليم أفندي الذي تلاحقت كلماته:

– لا تقل هذا. بكرة تنتهي وترجع إلينا كما كنت.

وضحك وهو يتابع بصوت أعلى:

– أو, أقول لك: اترك الكتابة, وهات افضح لنا هذا السر.

– لو فضحت لمتّ. يجب أن أكتب. ولن يقرأ أحد حرفًا حتى أموت.

– فضّنا من سيرة الموت, أستحلفك برحمة الست زهرة, برحمة الست لميعة. نحن من دونك لا نساوي شيئًا. أنا من دونك لا أساوي شيئًا.

– لا يا أخي. حماك الله وأمدّ بعمرك. أنت ما زلت تستطيع أن تفعل الكثير. أنت لست مثلي. أنا كسرني تحسين, بل قتلني, وإن كان سبقني إلى الموت"[17].

ولم يطل موت الباشا شكيم بعد هذا الحوار مع سليم أفندي البسمة, الذي استبق فيه الباشا شكيم موته، وتنبأ به.

وما يُلاحظ إضافة إلى قلة الاستباقات الزمنية، هو قصرها, وتجليها عبر أشكال سردية متعددة، كالحوار أو المونولوج الداخلي لبعض الشخصيات.

2-2- الإيقاع الزمني:

وقد تحقق في تقانتي تسريع السرد وتبطيئه:

أ- تسريع السرد:

ومن أبرز وجوه التسريع السردي للزمن:

1- **التلخيص:** الذي يتشكّل سرديًا عندما "تكون وحدة من (زمن)[18] القصة تقابل وحدة أصغر من زمن الكتابة تلخص لنا فيها الرواية مرحلة طويلة من الحياة المعروضة"[19]. حيث استخدم الروائي هذه التقانة لتلخيص بعض الأحداث الطويلة التي وجد أنّه لا داعي للإطالة والإسهاب في سردها، لعدم إشعار القارئ بالملل أو التذمر. "وتتجسد هذه التقانة

مشكلةً بؤرة سردية تتركز على تكثيف ملفوظات دالة توظف لهذا الغرض وتشتغل سرديًا من أجله, كقول الروائي: بضع سنوات, أشهر عديدة, أيام قليلة, ساعات محدودة, على سبيل المثال, وهي مرتكزات سردية غير محددة, أما المحددة فيتم معرفتها عن طريق تحديد رقمي متعين كأن نقول: سبع سنوات, ثلاثة أشهر.. وغيرها"[20].

ومن المرتكزات السردية غير المحددة التي تمظهر فيها التلخيص السردي لبعض الأحداث التاريخية: "تذكر وهو يضرب في الليل أنه قد شارك أولاء الرجال والشيخ مجلاد والشيخ غثوان منذ شهور معدودة الابتهاج بتنصيب الملك في الشام. كان لا يزال طارئًا هنا، وكان الشيخ مجلاد قد عاد من غيبة طويلة أخرى. أطلق فياض يومئذ الرصاص مثل سائر الشبان, وأسكرته عينا شعيلة, وربما عينا سواها من النساء اللواتي كن أكثر ابتهاجًا"[21]. فقد غطّى الروائي وبتسريع سردي من خلال هذا التلخيص حدثًا تاريخيًا مهمًا, ولم يستطرد في تفصيلاته.

ومن المرتكزات السردية المحددة التي تجلّى فيها التلخيص السردي لبعض الأحداث التاريخية: "منذ ثلاث سنوات تقريبًا لا يذكر أنه رأى مصفحة أو دبابة في المدينة. بل لا يذكر أنه رأى عسكريًا بخوذة, أو سلاحًا في يد شرطي, إلا أن يكون في احتفالات الجلاء, أو حول القصر الجمهوري وقيادة الجيش"[22]. هذا التسريع السردي الذي قدّمه التلخيص السابق يغطّي باختصار غير مسهب بعض أجواء احتفالات الجلاء التي فصّل فيها الروائي سابقًا.

ومن وجوه التسريع السردي للزمن:

2- **الحذف:** "أي أن الراوي يضطر أحيانًا إلى تجاوز بعض الحلقات الزمنية والاستغناء عنها, إما لأنها غير ذات أهمية في السرد الروائي, وإما أن ذكرها يكون مدعاة لإطالة سردية وبالتالي حدوث خلل سردي في النص, فلا يجد بُدًا من الاستغناء عنها بشرط ألا يخل هذا الاستغناء بالنظام الزمني ولا بالأحداث المعروضة فيشير إلى مواقع الحذف.

ويحدث له ذلك من خلال استخدام عبارات ذات فضاء زمني ماثل وواضح مثل: مضت سنوات عديدة أو مرت ثمانية أيام... دلالة على وجود حذف زمني محدد أو غير محدد, فالمحدد هو الإعلان عن المدة الزمنية المحذوفة, ثلاثة أيام على سبيل المثال, وغير المحدد هو الإخفاء المقصود كما في سنوات عديدة حيث لا ندرك السنوات المحذوفة"[23].

فمن **الحذف الزمني المحدد:** "بعد ثلاثة أشهر, وفيما كانت الذكرى الثانية للانقلاب الأول تقترب, قرر أن يكون رئيس الأركان, وأن يبدل اسمه. وإذا كان القرار الأول قد نفذ فورًا, فقد أمضّه القرار الثاني, وهو يتردد بين أن يكون تحسين المنتظر, أو تحسين الكبير, أو تحسين الأوحد, وبين أن يلغي اسم تحسين, ومن أجل ذلك يسرّح تحسين شداد من الجيش ويكتفي بواحدة من تلك الصفات"[24].

فقد حذف الروائي بعض الحلقات الزمنية من زمن الانقلاب الثاني, وبعض الخطوات المتعددة التي اتخذها تحسين الخفي لتثبيت حكمه, وأشار إلى موقع الحذف الذي كان قبل الذكرى الثانية للانقلاب الأول.

ومن **الحذف الزمني غير المحدد:** "قضى بديع الشهور التالية, قبل عودة الأمينين العامين– كذلك صار يردد في سره– من موسكو, وهو يتقد في ذبوله, ويتمرد في انصياعه, يجازف بالظهور حيثما قادته قدماه أو القروش المعدودة, يبحث عن أبي خضرة في معمل سينالكو, فيلعن واحد من الشغيلة الداء الذي سرق من المرحوم شبابه, ثم أودى بعقله, قبل أن تدهسه سيارة. يدفع الشغيل ببديع بعيدًا, بعد أن يسمي الشيوعية داءً. يتفحص بديع نفسه, ومن في البيت الذي يعلو الصيدلية. يبحث عن الداء. يلعن الشغيل, ويبكي على أبي خضرة"[25].

فلم يحدد الروائي عدد الشهور التي قضاها بديع قبل عودة الأمينين العامين, وبذلك حذف الكثير من الأحداث التي مرت بها شخصية بديع في هذه الفترة, وذلك لتسريع الزمن، ولاختصار الكثير من الأحداث التي لا تخدم السرد.

ب– تبطيء السرد:

من وجوه التبطيء السردي للزمن:

2-3- **المشهد:** "وهو المقطع الذي يأتي غالبًا في ثنايا السرد, يشكل بناءً عامًا للنص السردي, يكشف عن وجهة نظر الشخصيات التي تتحاور, ويأتي عادةً بصورة مفاجئة غير منتظرة, فلكي يتم تعطيل الزمن وإلغاؤه لا بدَّ من لحظة توقف مفاجئة تتيح للروائي فرصة الاستغناء عن الزمن"[26].

والمشاهد الحوارية كثيرة في الرواية, وبفضلها تمكن الروائي من الكشف عن وجهات نظر الكثير من الشخصيات إزاء الأحداث التاريخية, ومنها: "قال أسعد أفندي البس:

– المعاهدة التي تعرضها فرنسا علينا ليست معاهدة. ليتها كانت مثل صك الانتداب. قارنوا بينها وبينه.

وقال هنيدي بك:

– أية صداقة وأي سلم تتحدث عنه هذه المعاهدة بيننا وبين فرنسا, وهي لا تذكر الاستقلال والسيادة السورية إلا في العنوان؟

وقال طلوع البلة:

– إذا كانت المعاهدة لا تشمل سورية كما خلقها الله, فما حاجتنا إليها؟ أين نذهب نحن في السويداء؟ قل لهم يا أسعد أفندي: أين تذهب اللاذقية؟ واسكندرون؟ والجمهورية اللبنانية, ما شاء الله! كيف تكون الجمهورية السورية من أساسها؟"[27].

فمن خلال هذا المشهد الحواري الذي تعطل فيه الزمن، كشف الروائي عن رفض هذه الشخصيات المتحاورة في مؤتمر الكتلة الوطنية، للمعاهدة مع فرنسا لأنها لا تضمن الاستقلال والسيادة السورية.

ومن وجوه التبطيء السردي للزمن:

2-4- **الوقفة الوصفية:** و"تتمثل الوقفة الوصفية بمساحة الاستراحة التي يتوقف فيها السرد فاسحًا المجال لآلية الوصف بالعمل والتصوير والتدقيق في فضاء المكان, حين يصل السرد إلى منعطف حكائي يتوجب التوقف من مسح الموجودات السردية مسحًا وصفيًا يساعد في تلقي حيوات السرد على نحو أفضل"[28].

وكمثال على ذلك يقول الراوي: "في عودتهم تباطأت خطاهم, وراحت أعناقهم تتلفت صامتة بين الوجوه والدكاكين, تؤخذ بغمر الألوان والأشكال والأصوات والأشياء, حتى ظهر ذاك المقهى قبالة المسجد المزين بالكتابة الكوفية, فتسمّرت عليه عيونهم وآذانهم. كان النهر ينسل قريبًا, يخترق المقهى فيما يبدو, أو أن المقهى قد جثم فوق النهر, ثمة, بين شجيرات اللبلاب والصفصاف والحور الباسق.

من بعيد كان فياض يمطّ عنقه كي يدقق في الشرفة البلورية داخل المقهى الفارغ إلا من نادلين تزّنرا بالمناشف, وأركز أصغرهما خلف أذنه باقة من البراعم الصفراء. كانت النافورة تدفع الماء عاليًا, وسط الحوض الرخامي, والكراسي تتحلق حوله, وفي ركن أعلى وأبعد تصطف الأراكيل والنرابيش الحمراء, والأقداح الخزفية.

خلف فياض وقف عزيز وأبو عاطف يدققان في الجمع الذي احتشد بين المقهى والمسجد, يتوسطه شاب يرتدي مثل المعطف العسكري الذي يرتديه الضباط, سوى أن لونه بدا تحت أشعة الشمس حائلًا. كان الشاب يجلس مصالبًا ساقيه على منصّة صغيرة، يرفع صوته أعلى فأعلى مبالغًا في التنغيم. وخيل لعزيز أن شاربي الشاب مثبتان بالشمع. وتراءى لإسماعيل أنه سمع بعض ما يقول الشاب منذ يوم أو يومين, فأسرّ لعزيز وفياض بذلك"[29].

ففي غمرة السرد الروائي بعد عودة الجنود الخمسة إلى دمشق من الجيش الفيصلي الذي يُمم شمالًا, يتوقف الروائي لاستراحة وصفية تصف المكان الذي وصل إليه هؤلاء

الشخصيات, مبطئًا بذلك الزمن الروائي للخوض في تفاصيل هذا المكان من الداخل والخارج.

2-5- التحديدات الزمنية:

إن عملية المزج بين الزمن الروائي والزمن التاريخي فنيًا هي عملية تكاد تكون معقدة على نحو ما, لذلك نجد أن الروائي جعل من التحديدات الزمنية لبعض الأحداث التاريخية إطارًا لتحقيق تاريخية الرواية, ثم أنه في كثير من الأحيان استعمل الأحداث التاريخية المتحققة زمنيًا في الماضي، للإشارة إلى تراتبية الزمن التاريخي الممتد عبر الرواية من بدايتها إلى نهايتها. ومن التحديدات الزمنية للأحداث التاريخية: "صبيحة اليوم الثاني لإعلان جمهورية هاتاي بدت عينا نجاتي تدلّان بسر"[30].

وفي هذا التحديد الزمني يشير الروائي إلى وصول أحداث الرواية إلى عام **1939م**, العام الذي ضُم فيه لواء اسكندرون نهائيًا إلى تركيا بعد الاستفتاء الذي جرى عليه.

وبيّن الروائي بعض الأسباب التي أدّت إلى انتهاء الاستفتاء بغلبة نسبة الأتراك على العرب في لواء اسكندرون, بسبب مساعدة فرنسا، ودفع المال للعرب ليسجلوا أنفسهم أتراكًا.

ومن هذه التحديدات: "السابع عشر من نيسان, فجرًا: تبددت الغيوم على عجل, وأدمى القمر وجه قاسيون وذؤابات الغوطة! ولما أشرقت الشمس- على عجل أيضًا- ملأت الفضاء موسيقا الدرك, وراحت الشام تلتم على ضفة النهر"[31].

فهذا التحديد الزمني المرتبط بالحدث التاريخي، الاحتفال بجلاء الفرنسيين عن سوريا, أشار إلى وصول أحداث الرواية إلى عام **1946م**, وهو العام الذي انجلى فيه الفرنسيون عن سوريا.

ومن هذه التحديدات أيضًا: "لكنّ ستًا من المصفحات حاصرت بيته, متسترة بليل الرابع عشر من آب, خرّبت عليه كل شيء، واقتادته إلى سجن خال, وتركت للبنادق أن تزرده برصاصها زردًا"[32].

وهذا التحديد الزمني المرتبط بحدث نهاية انقلاب تحسين شداد، وقيام الانقلاب الثاني, أشار إلى وصول أحداث الرواية إلى عام **1949**, وهو العام الذي قام فيه الانقلاب العسكري الثاني في سوريا.

3- الخاتمة والنتائج:

دأب الروائي على تطويع الزمن والاستفادة من هلاميته, ليماهي بين الزمن الروائي والزمن التاريخي بما ينسجم ويتلاءم مع الأحداث التاريخية أو الأحداث الروائية التي تسردها الرواية, لذلك استثمر العديد من التقانات الزمنية للتجسيد الفعلي للزمن تاريخيًا, كالاسترجاع والاستباق والتلخيص والحذف والمشهد والوصفة القصصية والتحديدات الزمنية، من خلال طريقة التعامل مع الأحداث التاريخية على وجه الخصوص، والأحداث الروائية على وجه العموم، لإنجاز الهدف العام للرواية، وهو استحضار التاريخ الشعبي والواقعي والموضوعي لتلك المرحلة الزمنية من تاريخ سورية. فعندما كان يعالج الأحداث التاريخية كان الزمن حلقة الوصل بينها وبين الأحداث الروائية, للربط الفني فيما بين تلك الأحداث, وبذلك تندغم الأحداث التاريخية فنيًا ضمن الأحداث الروائية عبر الاستخدام الفني لتقانات الزمن.

- الحواشي الختامية:

[1] أ. أ. مندلاو: الزمن والرواية، ترجمة بكر عباس، مراجعة إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، **ط1، 1997، ص112.**

[2] آمال شحادة حسن: الرواية التاريخية بين الأدبين العربي والروسي في النصف الأول من القرن العشرين، نماذج مختارة، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة البعث، حمص، **2009- 2010، ص368.**

[3] عبد السلام أقلمون: الرواية والتاريخ، سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس، ليبيا، **ط1، 2010، ص34.**

[4] نفسه، **ص37.**

[5] يُنظر، المويقن مصطفى: تشكل المكونات الروائية، دار الحوار، اللاذقية، سورية، **ط1، 2001، ص136.**

[6] لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، (عربي، إنكليزي، فرنسي)، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، **ط1، 2002، ص18.**

[7] نبيل سليمان: رواية مدارات الشرق، الأشرعة **(1)**، دار الحوار، اللاذقية، سورية، **ط1، 1990، ص38- 39.**

[8] يُنظر، نبيل سليمان: رواية مدارات الشرق، بنات نعش **(2)**، دار الحوار، اللاذقية، سورية، **ط2، 1994، ص132.**

[9] نفسه، **ص203- 204.**

[10] نبيل سليمان: رواية مدارات الشرق، التيجان **(3)**، دار الحوار، اللاذقية، سورية، **ط1، 1993، ص167- 168.**

[11] نبيل سليمان، رواية مدارات الشرق، الشقائق **(4)**، دار الحوار، اللاذقية، سورية، **ط1، 1993، ص473.**

[12] وردت الكلمة في الأصل (يحين)، والصواب ما أُثبِتَ في المتن.

[13] لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، مرجع سابق، **ص15.**

(14) إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، صفاقس، تونس، **ط1، 1981، ص17.**

(15) الأشرعة، **ص189.**

(16) الشقائق، **ص75.**

(17) الشقائق، **ص543- 544.**

(18) وردت الكلمة في الأصل (الزمن)، والصواب ما أُثبِتَ في المتن.

(19) حسن بحرواي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، **ط1، 1990، ص145.**

(20) محمد صابر عبيد، بالاشتراك مع سوسن هادي جعفر البياتي: جماليات التشكيل الروائي، دراسة في الملحمة الروائية "مدارات الشرق" لنبيل سليمان، دار الحوار، اللاذقية، سورية، **ط1، 2008، ص219.**

(21) بنات نعش، **ص25.**

(22) الشقائق، **ص459.**

(23) محمد صابر عبيد، بالاشتراك مع سوسن هادي جعفر البياتي: جماليات التشكيل الروائي، دراسة في الملحمة الروائية "مدارات الشرق" لنبيل سليمان، مرجع سابق، **ص220- 221.**

(24) الشقائق، **ص582.**

(25) نفسه، **ص190- 191.**

(26) محمد صابر عبيد، بالاشتراك مع سوسن هادي جعفر البياتي: جماليات التشكيل الروائي، دراسة في الملحمة الروائية "مدارات الشرق" لنبيل سليمان، مرجع سابق، **ص221- 222.**

(27) التيجان، **ص304.**

(28) محمد صابر عبيد، بالاشتراك مع سوسن هادي جعفر البياتي: جماليات التشكيل الروائي، دراسة في الملحمة الروائية "مدارات الشرق" لنبيل سليمان، مرجع سابق، **ص223.**

(29) الأشرعة، **ص13.**

(30) التيجان، **ص599.**

(31) الشقائق، **ص352.**

(32) نفسه، **ص503.**